

الديمغرافيا التاريخية من اللإجرائية

الكمية إلى المقاربة الكيفية

محمد حيدة

كلية الآداب - القنيطرة -

Mohamed Habida

Historical demography from the quantitative procedure to the qualitative approach

Abstract :

This paper gives an outline of historical demography :
First attempts, evolution and the present state of affairs.

La démographie historique de la procédure quantitative à l'approche qualitative.

Résumé :

Aperçu sur la démographie historique : Premières tentatives,
évolutions et état actuel des études.

الديمغرافيا التاريخية من الإجرائية الكمية إلى المقاربة الكيفية

نشأت الديمغرافيا التاريخية بالمفهوم الدقيق في فرنسا خلال الخمسينات، وذلك أول الأمر على يد الديمغرافي لوي هنري بالمعهد الوطني للدراسات الديموغرافية **INED**. لقد كان أول باحث ينتبه إلى أهمية الإحصاءات القديمة. في مرحلة ثانية جرى البحث في هذا المضمار على نحو مزدوج الاختصاص. فقد تعاون الديمغرافيون والمؤرخون لوضع اللبنة الأساسية لهذا القطاع التاريخي الجديد. تشهد على ذلك دراسة الباحث المذكور بتنسيق مع المؤرخ فلوري سنة 1956 حول «منهج التنقيب واستغلال الحالة المدنية القديمة».

قامت الديمغرافيا التاريخية على أساس مصدر رئيسي: الأرشفات الخورية. إنها وثائق تضاهي في صورتها سجلات الحالة المدنية. فهي تتضمن معطيات بالغة الأهمية حول تواريخ وأماكن الازدياد والزواج والوفاة. معطيات عالجهها الباحثون بأسلوب إحصائي واستخرجوا منها قوائم ومنحنيات حول نسب الولادات والوفيات. إنها بحق إجرائية كمية من طراز مميز. يتعلق الأمر بالتحليل المجهرى الذي وضع قواعده لوي هنري. يقول جاك دوباكى، وهو أحد الممارسين المرموقين للديمغرافيا التاريخية: «لقد أدخل لوي هنري في العلوم الاجتماعية التحليل المجهرى المبني على مزاجية المعطيات الإسمية، وهو ابتكار يشابه في أهميته اختراع المجهر في العلوم الطبيعية». هذه الطريقة الجديدة في المعالجة التاريخية سميت بـ «منهج هنري».

تطلب منهج هنري من المؤرخين جهدا جبارا، في مرحلة أولى اقتضى الأمر وضع جذاذات خاصة بالولادات والزواج والوفيات، مع كل المعلومات المرتبطة بذلك، أي الأسماء العائلية والشخصية، السن، الجنس، الصلات العائلية، الأصول الجغرافية، إلخ. وفي مرحلة ثانية وجب هذا التلاحق منح للديمغرافيا التاريخية وجها اجتماعيا خلال السبعينات. فقد اتسع حقلها وتنوع اهتماماتها وصارت بالتالي تنظر في مواضيع جديدة كالعائلة والقرابة والجنس. إنه انتقال

وضع جداول أخرى لتتبع العائلات على مدى جيلين. وهي إحصائية تتيح إمكانية التعرف على سن الزواج، سن الموت، نسبة الخصوبة والعزوبة والتمل والزواج المعاد. هكذا فإن رصد تاريخ ساكنة قرية مكونة من 500 شخص كان يستلزم ستة أشهر من العمل الدؤوب. جهد تقلص فيما بعد بفضل المعالجة المعلوماتية.

والملاحظ أن أغلب التقنيات الديمغرافية تمت على المستوى المحلي. فقد أنجزت في فرنسا ما يزيد عن 500 مونوغرافية تخص القرى والمدن على السواء. إن إحصائية هنري هي أساسا إحصائية مونوغرافية.

في الستينات تألفت الديمغرافيا التاريخية بصورة كبيرة، وذلك على مستويين.

الأول: ظهور دراسات نموذجية كتلك التي أنجزها جون موفري وبييرغوبير، والتي تراهن على الربط بين منحنيات أسعار الحبوب ومنحنيات الوفيات للكشف عن الدورات الكبرى للانهايار السكاني في مجتمع ما قبل الثورة الفرنسية. إنها الدورات التي توالى فيها الإنتاجات الفلاحية الهزيلة وارتفاع الأسعار والمجاعات والأوبئة. وعليه يظهر الوباء، كطاعون 1720 مثلا، وهو يعصف بساكنة جائعة وضعيفة المناعة، كتنويع لأزمة اقتصادية.

الثاني: قيام مجموعة من الباحثين الإحصائيين، أمثال هنري، رينار، غوبير، دوباكيي، بتنظيم مناظرات وندوات في الموضوع، وخلق مختبر تابع للمعهد السالف الذكر، ومجلة متخصصة: « حوليات الديمغرافيا التاريخية ». هكذا حقق هذا القطاع نجاحا عالميا. فكل البلدان الأوروبية التي تتوفر على أرشيفات خورية سارت على نهج لوي هنري.

لكن إدراك الموقع المميز الذي احتلته الديمغرافيا التاريخية في حقل التاريخ يستدعي الإشارة إلى السياق الأسطغرافي العام الذي عرفته الساحة الفكرية في أوروبا عامة وفرنسا على وجه التحديد. إنه سياق مدرسة الحوليات. فقد نشأت الديمغرافيا التاريخية ونمت في وقت تأكدت فيه أبحاث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي على النحو الذي أفرزته أعمال إرنست لابروس وبيير شوني وفرانسوا فوري. إنه طراز التاريخ السريالي القائم على بناء السلسلات الطويلة الإحصائية. هذه الظرفية مكنت من الجمع بين مناهج البحث في التاريخ الاقتصادي، لاسيما الإحصائية الكمية، وتقنيات الديمغرافيا التاريخية. النتيجة ظهور دراسات ذات أهمية قصوى، نذكر منها على الخصوص تلك التي همت مناطق بوفيزيا، بروفانسيا، كاطالونيا ولانغ دوك (انظر البيبليوغرافيا).

من ديمغرافيا تاريخية ذات طابع كمي إلى أنثربولوجيا تاريخية ذات مظهر كيفي، حسب تعبير كي بوردي. لقد تحقق هذا الانتقال عبر قناتين:

الأولى: التأثير الذي مارسه أنثربولوجية ليفي ستراوس.

الثانية: التأثير المتأخر لأفكار فيليب آرياس. فمنذ 1948 كان قد أصدر كتابا نموذجيا حول «تاريخ سكان فرنسا ومواقفهم إزاء الحياة منذ القرن 18».

هكذا أخذ المؤرخ ينظر ما وراء الجرد الإحصائي، ما وراء العلائق بين السكان والمعاش. لقد تغيرت التساؤلات وبرزت آفاق جديدة: السلوكات الجماعية، الأنساق الثقافية، العقلية. وعموما يمكن الحديث عن إطارين أساسيين للبحث.

الأول: العائلة والقربة. إذا كانت الإجرائية الكمية قد أظهرت العائلة كخلية بيولوجية من شأنها أن تقدم، من خلال جردها المنسق، بنية الخصوبة ومنحنيات، فإن المقاربة الأنثربولوجية تناولتها من زاوية فعاليتها البيولوجية الإحساسية. هكذا توجه البحث نحو النظر إلى التحولات الهامة في النظام الديموغرافي الحديث كتأخر سن الزواج ابتداء من القرن 17 وظهور تحديد النسل وهبوط نسبة وفيات الأطفال خلال القرن 18 ليس فقط من زاوية اليكانيزمات الديمغرافية المحضة، بل أيضا من جانب التغير في السلوكات، أي التحول في الحياة العائلية، في أخلاقياتها، في وظائفها، في القواعد المنظمة للروابط بين الأزواج والأقارب والأطفال.

في هذا السياق، بين التناسل البيولوجي والتكاثر الاجتماعي، برز قطب أنثربولوجي: القربة. مفهوم أغنى التحليل التاريخي. فقد أوضحت دراسات جورج دوبي حول منطقة ماكونيا ولادوري بخصوص لانغ دوك وكلايش بصدد العائلات التوسكانية، أن أوروبا عرفت في نهاية العصر الوسيط وبداية الحديث انتعاشا مهما لصلات القربة - أي التجمعات العائلية - بسبب تفكك جهاز الدولة والنسيج الاجتماعي. فالتراجع الديمغرافي وما نتج عنه من تمركز في الموارد وضعف الدور الحمائي للدولة جعل من العائلة حصنا يلتهم الحياة الاجتماعية.

ثانيا: الجنس. إن التنبيه إلى بنيات العائلة والقربة أفضى إلى مبحث جديد: السلوكات الجنسية. هنا تناول المؤرخون تاريخ استعمال أساليب منع الحمل، الإجهاض، التوليد السري، ومن

ثم لأمسوا الذهنيات والأخلاقيات الجنسية والأنماط السلوكية. كما أدى هذا الاهتمام إلى فتح مجال عريض، ألا وهو تاريخ النساء، الذي أفرز في العقدين الأخيرين دراسات غنية عديدة.

هذه الإشارات تدفعنا للتساؤل حول مدى إمكانية الحديث عن ديمغرافيا تاريخية في المغرب. هل باستطاعتنا الغمار في حقل من هذا النوع؟ هل تكفي وثائقنا المعروفة لمشروع كهذا؟ أليس في محاولة كهذه، بالنظر إلى مسألة الوثائق، بعض الانقلاب في تصور المعالجة ذاتها، أي التعامل مع القطاع من زاوية الموضوع عوض المنهج؟ بعبارة أخرى أكثر وضوحا، التركيز على ساكنة الماضي ومكوناتها البشرية وتوزيعها في المجال وتحركاتها بدلا من الإلحاح على طبيعة المصادر والخيار المنهجي؟ هل لدينا من التراكمات ما يؤهلنا لمقاربة المباحث المتصلة بالموضوع من منظور الانثربولوجيا التاريخية؟ تلك هي التساؤلات التلقائية التي تتبادر إلى ذهن كل قارئ لإنجازات الأسطغرافيا الغربية.

بيبلوغرافيا:

1- قضايا المنهج:

Annales de Démographie historique, Revue annuelle éditée par L. H. E. S.

Paris. S. ,

2- ARIES (ph) L'histoire des mentalités, in La Nouvelle histoire, sous la direction de J. Le GOFF, R. CHARTIER et J. REVEL, Paris, 1978, éd. Complexe, 1988,

pp. 167 - 190.

3- BOURDE (G.) et MARTIN (H.), Les écoles historiques , éd. du seuil, Paris, 1983.

4- CHAUNU (H.), L'histoire sérielle, bilan , et perspective, Revue historique, avril - juin 1970.

5- BURGUIERE (A.), L'Anthropologie historique, in La Nouvelle histoire..., pp.137 - 165

6- Dictionnaire des sciences historiques, sous la direction de A. BURGUIERE, P. U . F., Paris, 1986.

7- DUPAQUIER (J.), Introduction à la démographie historique, GAMMA, Paris, 1974.

8- DUPAQUIER (J.), Pour la démographie historique, P. U. F., Paris, 1983.

9- Faire de L'histoire, sous la direction de J. LE GOFF et P. NORA, Gallimard, Paris, 1974, 3 vol.

10- FURET (F.), Le quantitatif en histoire, in Ibid., vol. I, pp. 42 - 61.

11- GUILLAUME (P) et POUSSEAU (J.), Démographie historique, A. Colin, Paris, 1970.

12- HENRY (L.), Mannuel de démographie historique, A. Colin, Paris, 1967.

13- HENRY (L) et BLUM (A), Techniques d'analyse en démographie historique, N. E. D., Paris, 1980. rique,I.

2- الإنجازات

- 1- ARIES (Ph), L'histoire des populations françaises et leurs attitudes devant la vie depuis le XVIII siècle, Paris, 1948.
- 2- ARIES (Ph), L'enfant et la vie familiale sous L'Ancien Régime, Plon, Paris, 1960.
- 3- BAEHREL (A.), Une croissance: La basse - Provence rurale, S. E. V. P. E. N., Paris, 1961, 2 vol.
- 4- DUPAQUIER (J.), La population rurale du bassin parisien à l'époque de Louis XIV, Paris, 1979.
- 5- FLANDRIN (J. L.), Contraception, mariage et relations amoureuses dans l'Occident chrétien, Annales ESC., 1969, pp. 1370-1390.
- 6- FLANDRIN (J.L.), Les Amours paysannes, XVI-XIX siècles, Paris, 1975.
- 7- FLANDRIN (J.L.), Familles, Paris, 1976.
- 8- FOUCAULT (M-), Histoire de la sexualité, Paris, 1986, 3 vol.
- 9- GAUTIER (E.) et HENRY (L.), la population de Crulai, paroisse normande, publications de L'INED, P. U. F., Paris; 1958.
- 10- GOUBERT (P.), Beauvais et Beauvaisis, S. E. V. P. E. N., Paris, 1960, réédité sous le titre: Cent mille Provinciaux au XVII siècle, Flammarion- 1968
- 11- GOUESSE (J.), Parenté, famille et mariage en Normandie au XVII et on, Paris XVIII siècles, Annales esc., 1972, pp. 1130 - 1154.
- 12- Histoire de la famille, sous la direction de A. BURGUIERE, ch. KLAPISCH EUBER, M. SEGALEN et F. ZONABEND, A. Colin, Paris, 1986.
- 13- Histoire des femmes en Occident, sous la dir. de G. DUBY et M. PERROT, Plon, Paris, 1990- 1992, 5 vol. - voir également compte rendu: M. HOUBBAIDA, Femmes et histoire. A propos d'un Livre récent, Revue de la Faculté des Lettres - kénitra, année 1997 (sous presse).
- 14-KLAPISCH-ZUBER (C.), Les Toscans et leurs familles au quattroceto, Paris, 1978.
- 15- LE ROY LADURIE (E.), Les paysans de Languedoc, Flammarion, Paris, 1969.
- 16- MEUVRET (J.), Récoltes et populations, Revue population, INED, 1946.
- 17- VILAR (P.), la Catalogne dans L'Espagne moderne, Paris, 1962, 3 vol.